

13- " العدول في البنية النحوية في شعر ابن المقرب "

العمل الشعري إبداع لغوي بالدرجة الأولى ، ولكنه إبداع لغوي مخصوص على نسق مخصوص ؛ يتفق مع الإبداع النثري أحيانا ويختلف عنه حيناً آخر ؛ لذلك لم يغفل النقاد القدماء العنصر اللغوي في تحديدهم للشعر مع العناصر الأخرى التي وعوها في بناء الشعر ، بل ذكروا أن البناء اللغوي للشعر بناء يتصف بالبلاغة متأثر بالخيال والعاطفة مؤسس على الإيقاع المبني على عنصري الوزن والقافية ، فالشعر " كلام موزون ذو قافية ، لكنه يصدر عن قوة الخيال بتأثير حركة النفس وانفعالها ، إنه كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ، ويكره إليها ما قصد تكريهه ؛ لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من تخيل له ومحاكاة ". إنها لغة انفعالية متأثرة بحركة النفس وقوة خيالها ، ومن شأن تلك اللغة الانفعالية أن تؤثر في نفس الملقى تأثيراً بالغاً في قوته لدرجة أنه يحبب إليه ما قصد تحبيبه إليه ، ويبغض إليه ما قصد تبغيضه ، إن الاستعارة البلاغية في الشعر البليغ تحرك " مشاعرنا، وتثير عواطفنا ، بحيث إنه يستحيل التعبير عن هذه الاستعارة بطريقة عقلانية ومنطقية بحتة ، وهي تثير عواطفنا لأنها تحرك عواطفنا أو توقظ شيئاً ما في أعماق كياننا بحيث يجب تسميته روحانياً ؛ إذ لا تستطيع الحقائق الكبرى أن تتخذ شكلاً أو صورة يتمكن العقل البشري من فهمها إلا بواسطة هذه التماثلات الخفية ، وإلا تعذر التعبير عنها ، وهذا ما يدركه الشاعر حق الإدراك " .

إن الشعر مقيد بضوابط ومعايير مقننة ليس للشاعر أن يخرج عنها، منها الإيقاع بحر معين يبني الشاعر عليه قصيدته ، وليس له أن يخرج عنه على مدار القصيدة كاملة .

والأصوات يلتزم بها في آخر كل بيت دون الخروج عليها بزيادة أو نقصان ، بما في ذلك التقيد بحرف روي واحد ، إلى آخر أحكام القافية . والبناء اللغوي الصحيح من حيث البنية الصرفية أو البنية النحوية . ذلك البناء اللغوي له إيقاع خاص به ،

إيقاع لغوي يختلف عن إيقاع الوزن الذي يمثله البحر بتفعيلاته المعينة ، أما الإيقاع اللغوي فيتمثل في نغمات الأصوات ، والأبنية والتراكيب وموسيقاها الناشئة من تكرارها على نحو ما في أبيات القصيدة ، إن " الإيقاع اللغوي يقوم على الصوت بداية بالحركة ثم الصوت المفرد ، فالكلمة ، فالجملة ، ولهذا فإن الصوت يصبح مفتاح التأثيرات الأخرى في الشعر ، ويكتسب شخصيته عن طريق التوفيق بينه وبين ما يسبقه ، ويصبح الإيقاع هو النسيج الذي يتألف من التوقعات والإشباع ، أو خيبة الظن أو المفاجآت التي يولدها سياق المقاطع ، ولا يبلغ تأثير صوت الكلمة قوته إلا من خلال الإيقاع " .

ولذلك فإن لغة الشعر مستوى آخر من اللغة بجوار لغة النثر ، هذان المستويان يعيشان جنباً إلى جنب ، ولكل منهما خصائصه ومميزاته وأهم ما يميز لغة النثر - في اعتقادي - المحافظة على سلامة التركيب صوتياً وصرفياً ونحوياً أي المحافظة على البناء اللغوي وفقاً للقواعد والمعايير التي وضعها النحاة .

وأهم ما يميز لغة الشعر - من وجهة نظري - المحافظة على الفن والإيقاع والموسيقى والخيال والعاطفة ، وإن جاء ذلك - في بعض الأحيان - على حساب القواعد والمعايير ، لذا نجد لغة الشعر لا تقبل توالي المقاطع الذي تقبله لغة النثر ؛ فمن الممكن أن يتوالى في لغة النثر أربعة مقاطع قصيرة أو أكثر في كلمات متتالية ، ففي قول الله تعالى: (ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى) . توالى خمسة مقاطع قصيرة وهي : ووجدك وَّ = ص ح ، وَّ = ص ح ، جَ = ص ح ، دَ = ص ح ، كَ = ص ح ، وهذا لا يمكن أن يحدث في الشعر " إذ لا يمكن أن تتوالى فيه أكثر من ثلاثة مقاطع قصيرة في أي بحر من البحور بحال من الأحوال ، كما أنه لا يجوز فيه توالي ثلاثة مقاطع قصيرة إلا في البحور التي تقبل فيها التفعيلة (مستعلن) تقصير المقطعين الأولين فيها ... إذا دخلها زحاف الخبل ، وهو اجتماع الخبن والطي ... ومع ذلك فهو ليس شائعاً في الحقيقة إلا في الرجز " .

كما أن المقطع الرابع " لايجوز في الشعر أصلاً إلا في الوقف ، أي إنه لا يجوز فيه مثال إضالّين ، وشابّة ، ومدهامّتان " .

وإلا فإن الشاعر يغير أمثال تلك الكلمات إذا أراد استخدامها .

إن الوزن والقافية يؤثران في بناء الجملة وتركيبها تقديمًا وتأخيرًا ، وذكرًا وحذفًا ، وصرفًا ومنعًا من الصرف ، وتحريكًا لساكن أو تسكينًا لمتحرك ، فلا مفر من " تناول الجملة في الشعر في ضوء ما يحددها لها الوزن والقافية ... إن الوزن الذي يختاره الشاعر لبناء قصيدته يحدد أمامه عدد البدائل على مستوى المفردات المستخدمة في الجملة، وتعمل ملكة الشاعر على التوفيق الدقيق بين الكلمات بعضها وبعض ، واختيار أكثر البدائل ملاءمة لما يريد ، ويشدّد أمام الشاعر مجال الاستبدال ضيقًا عندما يصل إلى الكلمة الأخيرة في البيت ، وهي – بالطبع – الكلمة التي تكون القافية أو تكون جزءًا من القافية، أو تكون القافية جزءًا منها " .

وقد وعى القدماء خصوصية لغة الشعر ، وما تتميز به من العدول عن لغة النثر ، فقد وصفوا لغة الشعر وصفًا دقيقًا ، واستنبطوا مميزاتا " إلا أنهم لم يقولوا قواعد خاصة بلغة الشعر ، بل قالوا ضرورات شعرية أو ضرائر الشعر ، فهذه الضرائر إنما هي وصف للغة الشعر " .

من هنا نجد الخليل يؤثر عنه قوله : " الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ، ومن تصريف اللفظ وتعقيده ، ومد مقصوره وقصر ممدوده ، والجمع بين لغاته ، والتفريق بين صفاته واستخراج ما كلت الألسن عن وصفه ونعته ، والأذهان عن فهمه وإيضاحه ، فيقربون البعيد ، ويبعدون القريب ، ويحتج بهم ولا يحتج عليهم " .

فلغة الشعر تمتاز بالعدول الذي يكسر النظام اللغوي ويخرج عليه سواء أفي الصيغ ، أم التراكيب ، أم في العلاقات بين المفردات المختلفة في السياق اللغوي ، وإيجاد علاقات بينها على نحو لم يكن مألوفًا ، وذلك على امتداد العصور الشعرية المختلفة

، سواء في ذلك عصور القوة والازدهار ، وعصور الضعف والانحدار ، لدرجة أن تحرر الشعر من وحدة الوزن ومن القافية – فيما يسمى " الشعر الحر – لم يخرج عن تلك اللغة الخاصة وذلك المسلك الفريد بما فيه من العدول ؛ إذ كثرت فيه أيضاً الظواهر اللغوية العدولية الخاصة بالشعر، مما أدى إلى نمو الإحساس" بأن ورود هذه الظواهر في الشعر ليس من الضرورة في شيء ، أو بعبارة أخرى ، ليست ضرورة لغوية : نحوية كانت أو صرفية ، ولكنها – إن صح التعبير _ ضرورة فنية ؛ إذ يلجأ إليها الشاعر لا عن عجز أو قصور ، ولكن عن قوة واقتدار".

ولما كان التطور سنة من سنن الحياة ومواكبة ركب هذا التطور في غير انفصال عن القديم تعد من الواجبات المنوطة بالباحث لكشف اللثام عن الإسهامات القديمة لربطها بالحديث، لذلك اتخذت من المنهج الأسلوبى الذي يعد من أهم المناهج الحديثة لدراسة اللغة منهجاً لدراسة البيئة العربية، فاخترت نصاً أدبياً لدراسة تلك الظواهر لدى أحد شعراء العصور المتأخرة فوق اختياري على ديوان شاعر عاش بين القرنين السادس والسابع الهجريين هو جمال الدين علي بن المقرب بن الحسن بن عزيز البحراني العيوني المولود عام 572 هـ ، والمتوفي عام 630 هـ ، قال عنه ابن الشعار الموصلي : "كان شاعراً مجوداً ، كثير المدح ، قليل الهجاء ، جيد القول متينه ، قوي اللفظ رصينه ، وهو أحد الشعراء الموصوفين المشاهير في عصره المعروفين ، أقر له بالحذق أئمة العراق من ذوي الأدب والعلم ، ومذهبه في الشعر مذهب الشعراء المتقدمين في جزالة اللفظ وإبداع المعنى " . وقد قيل : " إن لديوان ابن المقرب مكانة أدبية رفيعة ، فشاعر الجزيرة العربية في القرن السابع الهجري أعاد للشعر مجده الأدبي بحق ، كما أعادت قصائده الرصينة إلى الأدب العربي شبابه ... فشعره حد فاصل بين عصرين من عصور الأدب ، أحدهما مشرف مزدهر ، والآخر مفرط في الانحدار " . وقد رصد البحث في شعره الظواهر العدولية التي شاعت في الشعر العربي على مدى عصوره المتتابعة ، وفسر البحث تلك الظواهر

تفسيراً نصياً مرتبطاً بالنصوص متوائماً مع السياق الواردة فيه ، وجاء ذلك من خلال الموضوعات الآتية :

- العدول . والاختيار . و البنية الإيقاعية للديوان .والعدول في الديوان . والعدول في البنية النحوية .والعدول في البنية النحوية في حشو البيت .والعدول بالزيادة . والعدول بالنقص . والعدول بالتغيير . والعدول في البنية النحوية في القافية .

(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)